ٱلْإِلْمَام

بِآيَاتِ الإِنَافَةِ لِقَدْرِ النَّبِيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ

في سُورَةِ الأنْعَام



جمع

نزار حمادي

دار الإمام ابن عرفة

تونس

ٱلْإِلْمَام

بِآيَاتِ الإِنَافَةِ لِقَدْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

فِي سُورَةِ الأَنْعَام

جمع

نزار حمادي





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَرْسَلَ حَبِيبَهُ لِلْعَالَمِينَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَبَعَثَهُ دَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ جَعَلَهُ فَاتِحًا وَخَاتِمًا إِعْلَاءً وَتَفْخِيمًا، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ الأُمَمِ وَسَطًا إِجلالًا لَهُ وَتَكْرِيمًا، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ المُقْتَفِينَ عَلَى آثَارِهِ نَهْجًا قَوِيمًا.

وَبَعْدُ، فَإِنَّ مِنْ أَوْثَقِ عُرَى الإِيمَان، مَحَبَّةُ حَبِيبِ الرَّحْمَن، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَهَذِهِ المَحَبَّةُ عَلَى قِسْمَيْنِ:

ـ فَقِسْمٌ لَا يَصِحُّ الإِيمَانُ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ ٱعْتِقَادُ إِنَافَةِ قَدْرِهِ وَرِفْعَةِ مَنْزِلَتِهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَمَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى التَّصْدِيقِ بِنُبُوَّتِهِ، وَصِدْقِه في جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ.

ـ وقِسْمٌ لَا يَكْمُلُ الإِيمَانُ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ دَوَامُ تَعَلُّقِ القَلْبِ بِهِ تَعْزِيرًا وَتَوْقِيرًا ذِكْرًا وٱشْتِيَاقًا لَهُ ﷺ.

وَهَذَانِ القِسْمَانِ مُضَمَّنَانِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1].

وَقَدْ تَوَفَّرَتْ جَمِيعُ أَسْبَابِهِمَا، وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ القَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: مَيْلُ الإِنْسَانِ لِمَا يُوافِقُه:

[١] ـ إِمَّا لِأَنَّهُ يَسْتَلِذُّهُ وَيَسْتَحْسِنُهُ: كَمَيْلِهِ لِلصُّورَةِ الجَمِيلَةِ، وَالأَصْوَاتِ الحِسَانِ، وَالمَطَاعِمِ الشَّهِيَّةِ، وَأَشْبَاهِهَا مِنَ المُسْتَلَذَّاتِ بِالحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ.

[١] ـ أَوْ يَسْتَلِذُّهُ بعَقْلِه مِن المَعَانِي البَاطِنَةِ الجَمِيلَةِ وَالأَخْلاَقِ الرَّفِيعَة: كمَحَبَّة الصَّالِحين وَالعُلماءِ وأَهْلِ الفَضائِل والخِصَالِ العَلِيَّة، وإِنْ لَمْ يَرَهُمْ وَلاَ قَارَبَ زَمَانَهُمْ.

[١] ـ أَوْ مَيْلُهُ لِمَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِ ويُنْعِم عَلَيْهِ، ويَدْفَعُ المَضَارَّ وَالمَكَارِهَ عَنْهُ، فَقَدْ جُبِلَتِ النُّفُوسُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا.

وَهَذِهِ المَعَانِي كُلُّهَا مُتَحَقِّقَةٌ لِنَبِيِّنا ﷺ مُسَبِّبَةٌ لِحُبِّهِ؛ لِمَا خُلِقَ عَلَيْهِ مِنْ كَمَالِ صُورَةِ البَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَكَمَالِ خِلاَلِ الجَمَالِ وَالجَلاَلِ، وَجِمَاعِ

---

(١) البخاري في الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان؛ ومسلم في الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين.

الفَضَائِلِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَى المُسْلِمِينَ بِهِدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ وَدَوَامِ النَّعِيمِ وَالإِبْعَادِ عَنِ الجَحِيمِ[1].

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الوُصُولِ إِلَى مَحَبَّتِهِ ﷺ المَحَبَّةَ الكَامِلَةَ مَحَبَّةُ اللهِ تَعَالَى؛ إِذْ مِنْ مَحَبَّتِهِ تَعَالَى مَحَبَّةُ مَنْ أَحَبَّهُ مِنْ نَحْوِ نَبِيٍّ أو مَلَكٍ أَوْ وَلِيٍّ؛ لِأَنَّ مَحْبُوبَ الحَبِيبِ حَبِيبٌ، وَعَلَى هَذَا وَرَدَ قَوْلُهُ ﷺ: «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنَ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللَّهِ»[2].

وَشَوَاهِدُ مَحَبَّةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِحَبِيبِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى كَثِيرَةٌ، كَيْفَ وَقَدْ وُشِّحَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ بِفَضَائِلِهِ، وَزُيِّنَ بِمَنَاقِبِهِ، حَتَّى لَا تَكَادُ تَخْلُو سُورَةٌ مِنْ ذِكْرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالفَضْلِ وَالإِكْرَام، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّبْجِيلِ وَالإِنْعَام.

وَقَدْ تَتَبَّعْتُ مَا وَرَدَ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عِنَايَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِحَبِيبِهِ ﷺ: كَتَسْلِيتِهِ مِمَّا كَانَ يُلَاقِيهِ مِنَ المُكَذِّبِين، وَالتَّصْبِيرِ لَهُ عَلَى أَذَاهُمْ، وَتَقْوِيَةِ قَلْبِهِ الشَّرِيفِ، وَتَهْوِينِ الخَطْبِ عليْهِ، فَٱسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى ٱنْتِهَائِهِ ﷺ فِي جَلَالَةِ القَدْرِ وَعُلُوِّ المَرْتَبَةِ وَإِنَافَةِ المكَانَةِ

---

(١) إكمال المعلم (ج١/ص٢٧٩)

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٨٩)

وَسُمُوِّ المَنْزِلَةِ عِنْدَ رَبِّهِ تبارك وتعالى إِلَى مَقَامٍ جَلِيلٍ وَغَايَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ يُشَارِكْهُ فِيهَا غَيْرُهُ، وَذَلِكَ مِمَّا يُمَهِّدُ السَّبِيلَ لِحُصُولِ المَحَبَّة الكَامِلَةِ لَهُ ﷺ، وَنَظَمْتُ ما تَحَصَّلَ مِنْ ذَلِكَ فِي سِلْكِ هَاتِهِ الرِّسَالَةِ مَشْفُوعًا بِكَلامِ العُلَمَاءِ وَالمُفَسِّرِينَ، وجَعَلْتُهَا تَذْكِرَةً لِنَفْسِي ولِمَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ بَعْدِي.



تَمْهِيدٌ
فِي فَضَائِلِ سُورَةِ الأَنْعَامِ

مِن فضائل هذا السُّورة الكَريمة ما أخرجهُ أبو عُبَيْدٍ القاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ في فضائل القُرآنِ عَنْ عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ قالَ: الأَنْعَامُ مِنْ نَوَاجِبِ القرآن[1].

وقال القاضي أبي بكر بن العربي المعافري (ت٥٤٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره المسمى بـ«**وَاضِحُ السَّبِيل إِلَى مَعْرِفَةِ قانُونِ التَّأْوِيلِ وَفَوَائِدِ التَّنْزِيل**»: ٱعْلَمُوا - نوَّر الله قلوبكم للمعارف - أن ٱللهَ تعالى أنْزَلَ على رَسُولِه سُورَةَ الأنْعَامِ لَيْلًا فيما وردت به الأخبارُ جملةً، إلا ثَلَاثَ آياتٍ في الأحكام وهو قوله: ﴿**قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا**﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فدلَّ فيها بالتَّوْحِيد مِنْ حدَثِ العالَمَ، وذِكْرِ الصِّفَاتِ الإلَهِيَّة، والأَفْعَالِ الحِكْمِيَّة، والرسالةِ والرُّسل، مع أنواع الأدلة والحُجَج القاطعة، إلى أن

---

(١) فضائل القرآن (ص٢٤٠)

خَتَمَهَا بالخلافة، واقتدى بها كلُّ من تكلم في التوحيد وأصل الدين ابتدأ من حدث العالَمِ إلى الكلام في الخلافة والإمامة[1].

وَقالَ العَلَّامَةُ أَبُو عَبْدِ اللهِ زَيْتُونَة (ت١١٣٨هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: وقُطْبُها ـ نَفَعَنا اللهُ ببركاتها ـ يدور على إثْباتِ الصَّانِع وَدلائِلِ التَّوْحِيد.

قال أبو إسحاق الاسفرايني (ت٤١٨هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: في سورة الأنعام كُلُّ قواعِد التَّوْحيد، خصوصًا مبحث ٱسْتِدْلال الخليل فإنَّهُ أثْبَتَ فيه حُدوثَ العالَمِ بمطالبه السَّبْعَة، وقِدَمَ الصَّانع، ووَحْدَانِيَّته، وقُدْرَته على الكلِّ، وَكُلُّ الإلهيات وإن طالَتْ تَرْجِعُ إلى ما ذُكِرَ بالأَخَرَة، مع ما بَيَّنَتْهُ مِنَ النُّبُوَّات والسَّمْعِيَّات من أحوال المبدإِ والمعادِ، وإحاطَةِ عِلْمِه بالكُلِّيات والجُزْئِيَّات والجَهْرِيَّات والسِّرِياتِ، وشَرْحِ المُعْجِزات، وأحوال الجَنَّة والنار وأهلهما تَصْرِيحًا وتَلْوِيحًا، وغير ذلك مما لا يحيطُ به علما إلا العليم الخبير.

والتونسيون يَقْرَؤُونَهَا في مَرَّةٍ واحِدةٍ نظرًا للقَوْلِ بنُزولها كُلِّهَا جملةً، ويقرؤونها كلها قبل صلاة الاستسقاء بالصحراء في يومه لانطوائها على

(١) واضح السبيل، مخطوط بخزانة القرويين بفاس، (ج٤/ق٦٣/أ)

موائد الرحمة واحتوائها على سوابغ النعمة، وافتتاحها بالتحميد والشكر، واختتامها بالرحمة والغفران، وتحذيرها من مصارع الأمم بذكر أحوالهم وما نزل بهم وتذكيرها بنعم الله وإلزامها لتوحيده بقواطع دلائلها وسواطع براهينها وتخويفها من مكره، فيكون ذلك أبعث لهم على التوبة وأبلغ في ترقيق القلوب وتليين الأفئدة، ولاشتمالها على الاسم الأعظم بذكر الجلالتين مرتين بمحل واحد دون فصل بينهما، فيكون أرجى للإجابة وأنجح لحصول المسؤول، وهو مَقْصُودٌ حَسَنٌ تَصْحَبُهُ الإجابَةُ غالِبًا. انتهى.

وَهَذَا أَوَانُ الشُّرُوعِ فِيمَا قَصَدْتُ، وَعَلَى اللهِ ٱعْتَمَدْتُ وَفِي تَوْفِيقِهِ وَثِقْتُ.



فَصْلٌ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: ١٠].

قَالَ الإِمَامُ مَكِّيٌّ القَيْرَوَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **سَلَّاهُ** اللّٰهُ تَعَالَى بِمَا ذَكَرَ، وَهَوَّنَ عَلَيْهِ مَا يَلْقَى مِنَ المُشْرِكِينَ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ مَنْ تَمَادَى عَلَى ذَلِكَ يَحُلُّ بِهِ مَا حَلَّ بِمَنْ قَبْلَهُ[1].

وَقَالَ العَلَّامَةُ أَبُو عَبْدِ اللّٰهِ زَيْتُونَة (ت١١٣٨هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَمَّا أَبْطَلَ اللّٰهُ شُبَهَهُمُ المَقْدُوحَ بِهَا فِي نُبُوَّتِهِ ﷺ صَرَاحَةً وَإِشَارَةً بِمَا يَلْزَمُهُمْ عَلَيْهَا مِنَ المَحْذُورِ وَاللَّوَازِمِ المُصَادِمَةِ لِلْحَقِّ، وَأَثْبَتَ الحَقَّ بِبُرْهَانِهِ، وَقَطَعَهُمْ بِالحُجَجِ المُورَدَةِ لِبَيَانِهِ، وَصَدَرَتْ مِنْهُمْ هَنَاتٌ وَٱسْتِهْزَاءَاتٌ بِرَسُولِهِ ﷺ[2]، **سَلَّاهُ** بِمُنَاسَبَةِ حَالِهِ حَالَ سَابِقِ الرُّسُلِ فِي ذَلِكَ وَهَلَاكِ أُمَمِهِمُ

---

(١) راجع الهداية إلى بلوغ النهاية (ج٥/ص٣٧٤٣)

(٢) الخفاجي: والمستهزؤون خمسة من أشراف قريش كانوا يبالغون في إيذائه ﷺ فأهلكهم الله، وهي واردة على نهج الشفقة والتسلية والوعد بأنه سيكفيكهم بإهلاكهم. (النسيم (ج١/ص٢٩٦)

المُكَذِّبَةِ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[الأنعام: ١٠] أَيُّهَا الصَّادِقُ الأَمِينُ وكُذِّبُوا، فَلَكَ بِهِمْ أُسْوَةٌ، فَلَا تَحْزَنْ.

فهَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَتَهْوِينٌ لِلْأَمْرِ عَلَيْهِ عَمَّا يَلْقَاهُ وَيَنَالُهُ مِنْ قَوْمِهِ المَكِّيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْهُمْ مِنْ تَكْذِيبٍ وَاسْتِهْزَاءٍ وَمُقَاسَاةٍ وعَنَاءٍ[1].

وقال الشِّهابُ الخفاجِيُّ (ت١٠٦٩هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: **إِنَّمَا تُسَلِّي مَنْ تُحِبُّهُ** وَتُشْفِقُ عَلَيْهِ، وَالتَّسْلِيةُ بِأَنَّ إِخْوَانَهُ مِنْ أُولِي العَزْمِ ٱبْتُلُوا بِمِثْلِهِ فَصَبَرُوا، وَكَانَتِ النُّصْرَةُ وَالعَاقِبَةُ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الدَّارَيْنِ[2].



(١) الكفاية في التفسير (ج٢/ص١٨١)

(٢) النسيم (ج١/ص٢٩٦)

فَصْلٌ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ الجَلِيلَةُ أَفَادَتْ أَصْنَافَ تَفْخِيمٍ وَأَنْوَاعَ تَبْجِيلٍ وَوَصْفٍ جَمِيلٍ لِلْحَبِيبِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَا لَا يَخْفَى عَلَى ذَوِي الأَفْهَامِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَزَّاهُ وسَلَّاهُ، وَطَيَّبَ خَاطِرَهُ بكَمالِ المُجَامَلَةِ وحُسْنِ المُخَاطَبَةِ بِمَا يَتَحَيَّرُ فِي دَرْكِ دَقَائِقِه كُلُّ لَبِيبٍ، وَيَتَلاشَى فِي فَهْمِ نِكَاتِهِ كُلُّ أَرِيبٍ.

قَالَ العَلَّامَةُ أَبُو السُّعُودِ (ت٩٨٢هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: هُوَ ٱسْتِئْنَافٌ:

- مَسُوقٌ لِتَسْلِيَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَهْوِينِ الخَطْبِ عَلَيْهِ، وَتَوْسِيعِ صَدْرِهِ وَتَصْبِيرِهِ عَنِ الحُزْنِ ٱلَّذِي يَحْصُلُ لَهُ، وَالغَمِّ ٱلَّذِي يَعْتَرِيهِ مِمَّا حُكِيَ عَنِ الكَفَرَةِ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى جَحْدِ الآياتِ وَالإقامَةِ على التكْذِيبِ بها وعدَمِ التَّصْديق لهَا وَلَهُ؛ حَيْثُ يَقُولُونَ فيها: أَساطِيرُ الأَوَّلِين، وَسِحْرٌ مُبِينٌ، وَيَقُولُونَ فِيهِ: ساحِرٌ كَذَّابٌ، وشَاعِرٌ مَجْنُونٌ.

- وَمُوحًى بِهِ إِلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتَّعْرِيف بمقامِهِ، والمبالَغَةِ في بيان وإيضاح جلالَةِ منزِلَتِهِ العَلِيَّة مِن ربِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَشَرْحِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بمكانةٍ عظِيمَةٍ ومَرْتَبَةٍ جليلةٍ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ لا تساويها مكانَةٌ ولا تَبْلُغُها رُتْبَةُ أحَدٍ،

وَلِلدَّلالة على أنَّ ما يَفْعَلُونَهُ مِنَ التَّكْذيبِ والإنكارِ ورَدِّ الدَّعْوَةِ ويرْتَكِبُونَه مِنَ التَّقَوُّلات في حَقِّهِ ﷺ رَاجِعٌ إلَيْهِ تَعَالَى وَآيِلٌ لِجَنَابِهِ في الحقيقَةِ، وأنَّهُ ينْتَقِمُ منهم قَطْعًا وَيُهْلِكُهُمْ لا محالَةَ أشَدَّ انْتِقَامٍ وأَفْضَعَهُ[1].

قالَ بَعْضُ العُلَماءِ: لَيْسَ المَقْصُودُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ نَفْيَ التَّكْذِيبِ عنهُمْ في الحَقِيقَةِ؛ للقَطْعِ بأَنَّهُمْ كَذَّبُوا النَّبيَّ ﷺ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وَشَاهِدِ سَبَبِ النُّزُولِ، بَلِ المَقْصُودُ تَعْظِيمُ الأَمْرِ وتَفْخِيمُ الشَّأْنِ بِإِجْرَاءِ تَكْذِيبِهِ ﷺ مُجْرَى تَكْذِيبِ اللهِ تَعَالَى، وَلِذَلِكَ وُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ المُضْمَرِ تَهْوِيلاً للخَطْبِ وتَهْدِيدًا لهم عَلَى ظُلْمِهِم.

وَهَذَا كَقَوْلِ السَّيِّدِ لخادِمِهِ إذَا أَهَانَهُ رَجُلٌ: «أَيُّهَا الخادِمُ إِنَّهُ مَا أَهَانَكَ، وَإِنَّمَا أَهَانَنِي»، فَأَجْرَى إِهَانَةَ خادِمِهِ مُجْرَى إِهَانَةِ نَفْسِهِ.

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تعَالَى في سُورَةِ الفَتْحِ في حَقِّ مُصْطَفَاهُ ﷺ تَرْغِيبًا في الإيمانِ وتَهْيِيجًا للْقُلُوبِ علَيْهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ على الإيمانِ وُيعاهِدُونَك على الجِهادِ والثَّبَاتِ فيهِ وقِتَالِ العَدُوِّ مَعَكَ في

---

(١) راجع إرشاد العقل السليم (ج٣/ص١٠٤)

المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ فلاَ يَفِرُّونَ بِوَجْهٍ ولا يَتَأَخَّرُونَ بِحَالٍ ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح: ١٠] على ذَلِكَ في الحَقِيقَةِ؛ لأنَّهُ الَّذِي أرْسَلَكَ.

فيَكُونُ المَقْصُودُ هَاهُنَا: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ وَإِنَّمَا يُكَذِّبُونَ اللّٰهَ؛ لِأَنَّكَ نَاطِقٌ عَنْهُ، وَمُبَلِّغٌ لِلأَحْكَامِ مِنْهُ.

قال الشَّيْخُ الخَرُّوبِيُّ (ت٩٦٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ: وَكَأَنَّ في الآيَةِ نَقْلَ المُخَاطَبِ مِنْ سَبَبِ حُزْنٍ بِأَمْرٍ مُسْتَعْظَمٍ وَهُوَ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ وَهُوَ جَحْدُهُمْ بِآيَاتِ اللّٰهِ تَعَالَى[1].

وَقِيلَ فِي مَعْنَى الآيَةِ أَيْضًا: إِنَّ القَوْمَ مَا كَذَّبُوهُ ﷺ في السِّرِّ، بَلْ كَذَّبُوهُ فِي العَلاَنِيَةِ؛ لِأَنَّ الحارِثَ بْنَ عَامِرٍ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَاللّٰهِ مَا كَذَّبْنَاكَ قَطُّ، وَلَكِنَّا إِنِ ٱتَّبَعْنَاكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا، فَنَحْنُ لَا نُؤْمِنُ لِهَذَا السَّبَبِ، وَلِأَنَّ الأَخْنَسَ بْنَ شَرِيقٍ قالَ لِأَبِي جَهْلٍ: يا أَبا الحكَمِ أَخْبِرْنِي عنْ مُحَمَّدٍ أصادِقٌ هو أَمْ كاذِبٌ؟ فإِنَّهُ لَيْسَ عِنْدَنا أَحَدٌ غَيْرُنَا. فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: وَاللّٰهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لصَادِقٌ وَمَا كَذَبَ، وَلَكِنْ إِذَا ذهَبَ بَنُو قُصَيٍّ بِاللِّوَاءِ وَالسِّقايَةِ والحِجابَةِ والنُّبُوَّةِ فماذا يَكُونُ لسَائِرِ قُرَيْشٍ؟! فَنَزَلَتِ الآيَةُ.

---

(١) تفسير القرآن (ج١/ق١٤٥/أ)

فَالمَعْنَى على هَذا: إنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ بِقُلُوبِهِمْ، ولكِنَّهُمْ يجْحَدُونَ بِنُبُوَّتَكَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فظَاهِرُ قَوْلِهِمْ كقَوْلِهِ تعالَى في قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤]، وَبِأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ: أَنْتَ كَذَّابٌ؛ لِأَنَّهُمْ جرَّبُوكَ الدَّهْرَ الطَّوِيلَ في الزَّمَانِ المَدِيدِ وَمَا وجَدُوا مِنْكَ كذِبًا قَطُّ، وسَمَّوْكَ بِالأمِين، فلاَ يَقُولُونَ فِيكَ: أَنْتَ كَاذِبٌ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ.

قال القاضِي عِيَاضٌ (ت٥٤٤هـ) رحمه الله: فَفِي هَذِهِ الآيَةِ مَنْزَعٌ لَطِيفُ المَأْخَذِ مِنْ تَسْلِيَتِهِ تَعَالَى لَهُ عليه الصلاة والسلام، وَإِلْطَافِهِ فِي القَوْلِ، بِأَنْ قَرَّرَ عِنْدَهُ أَنَّهُ صَادِقٌ عِنْدَهُمْ، وَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَذِّبِينَ لَهُ، مُعْتَرِفُونَ بِصِدْقِهِ قَوْلًا وَٱعْتِقَادًا، وَقَدْ كَانُوا يُسَمُّونَهُ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ النُّبُوَّةِ الأَمِينَ.

فَدَفَعَ بِهَذَا التَّقْرِيرِ ٱرْتِمَاضَ[1] نَفْسِهِ بِسِمَةِ الكَذِبِ، ثُمَّ جَعَلَ الذَّمَّ لَهُمْ بِتَسْمِيَتِهِمْ جَاحِدِينَ ظَالِمِينَ، فَقَالَ تبارك وتعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣].

---

(١) الٱرْتماضُ: افْتِعَالٌ مِنَ الرَّمْضَاءِ وهِيَ شِدَّة الحرَارة، شُبِّهَ بها ما اشتدَّ عليه وأَقْلَقَهُ مِنْ أَلَمِ قَلْبِه. (النسيم، ج١/ص٢٢٩)

فَحَاشَاهُ[1] مِنَ الوَصْمِ، وَطَوَّقَهُمْ بِالمُعَانَدَةِ بِتَكْذِيبِ الآيَاتِ حَقِيقَةَ الظُّلْمِ، إِذِ الجَحْدُ إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ عَلِمَ الشَّيْءَ ثُمَّ أَنْكَرَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، ثُمَّ عَزَّاهُ وَأَنَّسَهُ بِمَا ذَكَرَهُ عَمَّنْ قَبْلَهُ، وَوَعَدَهُ ﷺ النَّصْرَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٣٤] الآيَةَ[2].

۞ لَطِيفَةٌ:

قال الشَّيْخُ الخَرُّوبِيُّ (ت٩٦٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ: ظاهِرُ الآيةِ أَنَّ حُزْنَهُ ﷺ مِنْ أَجْلِ قَوْلِهِمْ لَهُ، لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُصْرَفَ ظاهِرُهَا إلى مَعْنَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنَّما حَزِنَ عَنْ عَدَمِ إيمانِهِمْ شَفَقَةً مِنْهُ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةً لَهُمْ؛ إِذْ هُوَ ﷺ عَالِمٌ بِبَرَاءَتِهِ مِمَّا قالُوا، ومُتَحَقِّقٌ براءَةَ نَفْسِهِ مما قِيلَ فِيهِ، لا يُحْزِنُهُ ذلِكَ القَوْلُ.

فَإِنْ قِيلَ: لِمَ أَبْهَمَ المَقُولَ فأَوْقَعَ عَلَيْهِ «ٱلَّذِي» وَلَمْ يُفَسِّرْهُ بلَفْظٍ؟

قلتُ: صِلَةُ المَوْصُولِ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَعْهُودَةً، وَالمَعْهُودُ ذِهْنًا كالمَعْلُومِ، وَمَعَ هذَا فَعُدُولُ الخِطَابِ مِنْ لَفْظٍ إِلَى غَيْرِهِ لا بُدَّ فِيهِ مِنْ سرٍّ،

---

(١) «حَاشَى» فعلٌ ماضٍ أي: نزَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ النبيَّ ﷺ وبرَّأَهُ من الوصْمِ وهو مطلق النَّقْصِ والعَيْبِ، والمرادُ به الكذبُ المذكور في الآية. (النسيم، ج١/ص٢٢٩)

(٢) الشفا (٧١)

وسِرُّهُ هُنَا تَوْقِيرُ الحَبِيبِ ﷺ مِنْ أَنْ يُقَابَلَ بِقَوْلٍ قالَهُ الكُفَّارُ فِيهِ، وفي هذَا إظهارُ مَكانَتِهِ عليه الصلاة والسلام عند ربِّهِ ورَفِيعِ مَنْزِلَتِهِ، وَتَوْقِيرِهِ حَيْثُ لَمْ يُصَرِّحْ بِمَا صَرَّح به الكُفَّارُ (١).



(١) تفسير القرآن (ج١/ق١٤٥/أ)

فَصْلٌ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

في هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ عِنايَةٌ علَى عِنَايَةٍ، وَلُطْفٌ على لُطْفٍ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ما أَزَالَ عَنْ حَبِيبِهِ ﷺ الحُزْنَ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ لَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ، بَلْ أَكَّدَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِنْ شَوَاهِدِ مَقَامِ المَحَبَّةِ وَالخُلَّةِ.

قَالَ الوَاسِطِيُّ (ت٣٢٠هـ) رَحِمَهُ اللهُ: طَيَّبَ قَلْبَ نَبِيِّهِ ﷺ بما خَالَفُوه بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الخِلَافِ لِئَلَّا يَشُقَّ عَلَيْهِ حَالُ البَلَاغِ(١).

قال الشَّيْخُ الخَرُّوبِيُّ (ت٩٦٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ: هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ تَضَمَّنَتِ الإِخْبارَ بما يقْتَضِي تَسْلِيَتَهُ ﷺ وإزالةَ حُزْنِه، وذلك بما أَخْبَرَهُ تعالَى من أَمْرِ الرُّسُلِ وتكذيبِ قَوْمِهم وإذايَتِهم لَهُمْ فصَبَرُوا حتَّى أتاهُمْ نَصْرُ اللهِ.

---

(١) حقائق التفسير

وَفِي الآيَةِ أيضًا ما يُقَوِّي رجَاءَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكَأَنَّ فِي الآية تَعْرِيضًا له ﷺ بأَنْ يَتَأَسَّى بِمَنْ قبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ فيَصْبِرُ كما صَبَرُوا لِيُنْصَر كما نُصِرُوا [1].

فالآيةُ تَسْلِيَةٌ أخرى لإزالَةِ الحُزْنِ؛ لأَنَّ اللهَ تعالى بيَّن أنَّ جميع الأُمَمِ السّالِفَةِ عامَلُوا أنبياءهم هذهِ المعامَلة، وهُمْ صَبَرُوا على تكذيبِهِم وإيذائِهم حتى أتاهُمُ النَّصْرُ، فَٱلْتَزِمْ هذهِ الطَّرِيقَة، بل أنتَ أَوْلَى؛ لأنك مبعوثٌ إلى الثَّقَلَيْن، فٱصْبِرْ كما صبَرُوا تَظْفَرْ كمَا ظفَرُوا.

ثم قوّى تعالى هَذَا الوَعْدَ بقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لمواعِيدِه: مِنْ قَوْلِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٢]، وقوله تَعَالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وقولهِ تعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١].



---

(١) تفسير القرآن (ج١/ق١٤٥/ب)

فَصْلٌ

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٥].

قال الشَّيْخُ الخَرُّوبِيُّ (ت٩٦٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: المقْصُود منْ هذه الآية حَمْلُ النبيّ ﷺ على الصَّبْر والتسليم لمراد الله تعالى في خَلْقِه مِنْ إيمانٍ وكُفْرٍ، فإنهم مظاهِرُ الفَضْلِ والعَدْلِ؛ إذ كان ﷺ حريصًا على هدايتهم، فَرُدَّ إلى الوُقوفِ مع القضاءِ، والنَّظَرِ إلى السَّابقة الأزليَّةِ، وٱلْتِزامِ الصَّبْر وٱنْتِظارِ النَّصْر، فقِيلَ لَهُ: إنِ ٱسْتَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا في الأرض أو سلَّما في السماء فتَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ فٱفْعَلْ، وأنْتَ لا تقْدِرُ على ذلك، فٱسْتَسْلِمْ لِأَمْرِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] وَقَفَ هُدَاهُمْ على مَشِيئَتِه عَزَّ وَجَلَّ، والحكمُ عامٌّ فيهم وفي غَيْرِهم، وفيه إشارةٌ إلى تَرْويحِ باطِنِهِ ﷺ مِنَ العَناءِ، والٱسْتسلامِ لحُكْمِ المَشِيئَة، ولو شاءَ جَمْعَهُمْ على الهُدَى لكَانَ، لكِنَّهُ لمْ يَشَأْ فَلَمْ يَكُنْ؛ لِمَا سَبَقَ مِنْ تَمامِ سِرّ القَبْضَتَيْنِ وعِمَارَةِ الدَّارَيْنِ وَظُهُورِ الجَلَالِ وَالجَمَالِ.

وَقَوۡلُهُۥ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾[الأنعام: ٣٥] قيل: هو خطابٌ للنبي ﷺ، والسيدُ يقول للعبد ما شاء مع حفظ رتبته وتعظيم مكانته وترفيع قدره، فقد يخاطب السيدُ عبدَهُ بما لا يبيحُ لأحد غيره أن يخاطبه به. وقيل: الخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد غيرُهُ من أمّته[1].



(١) تفسير القرآن (ج١/ق١٤٥/ب)

فَصْلٌ

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٦﴾[الأنعام: ٣٦].

قال العَلَّامة الصّاوي (ت١٢٣١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذا مِنْ جُمْلَةِ التَّسْلِية لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، والمعنى: لا تَحْزَنْ على عدَمِ إيمانهم؛ فإنما يستجيبُ لك ويَمْتَثِلُ أَمْرَك، ويَقْبَلُ المواعِظَ الذين يَسْمَعُون سَماعَ قَبُولٍ، والَّذِين لا يَسْمَعُون يَبْعَثُهم اللهُ فيجازيهِم على ما صدَرَ منهم، فللنَّار أهْلٌ، وللجَنَّة أهْلٌ، فمَنْ خَلَقَ اللهُ فيه الهُدَى انْتَفع بالمواعظ وآمَنَ، ومَنْ خلقَ فيه الضَّلالَ فلا تزيده المواعظُ والآياتُ إلَّا ضَلالًا.

وهذه الآيَةُ في الحقيقة اسْتِدْراكٌ على قَوْلِه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[الأنعام: ٣٥]، فالمعنى: لَمْ يَشَأْ جَمْعَهُمْ على الهُدَى، بل قَسَّمَ الخَلْقَ قِسْمَيْن: قِسْمٌ للجنَّةِ، وقسمٌ للنار[١].



(١) حاشية على تفسير الجلالين (ج١/ص٥٢٥)

فَصْلٌ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم[1] بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[الأنعام: ٥٢].

هَذِه الآيَةُ نزَلَتْ فِي فُقراءِ المؤمنين كبِلَالٍ وعَمَّارِ بْنِ ياسِرٍ وعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وخَبَّابٍ وَصُهَيْبٍ وأمْثَالِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

أخرج مسلم عَنْ سَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ٱطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الأنعام: ٥٢][2].

---

(١) أي المحسن إليهم بفنون التربية التي منها هدايتهم إلى الإيمان وتكميلهم بالعرفان وتوفيقهم لصالحات الأعمال.

(٢) مسلم (٢٤١٣).

وأَخْرَج ٱبْنُ مَاجَهْ عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ، كُنَّا ضُعَفَاءَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، فَعَلَّمَنَا القُرْآنَ وَالخَيْرَ، وَكَانَ يُخَوِّفُنَا بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ، وما ينفعنا، والموت وَالبَعْثِ، فَجَاءَ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الفَزَارِيُّ فَقَالَ: إِنَّا مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِنَا، وَإِنَّا نَكْرَهُ أَنْ يَرَوْنَا مَعَهُمْ فَٱطْرُدْهُمْ إِذَا جَالَسْنَاكَ، قَالَ: «نعَمْ»، قَالُوا: لَا نَرْضَى حَتَّى نَكْتُبَ بَيْنَنَا كِتَابًا، فَأَتَى بِأَدِيمٍ وَدَوَاةٍ، فَنَزَلَتْ هَؤُلَاءِ الآيَاتِ[1].

قال الإمامُ أبو العَبَّاس القُرْطُبِيُّ (ت٦٥٦هـ): إنَّما مَالَ ﷺ إلى ذلِكَ طَمَعًا في إسْلَامِهِمْ وإسْلَامِ قَوْمِهِم، وَرَأى أَنَّ ذلِكَ لا يُفوِّتُ أصحابَه شيئًا، ولا ينقصُ لهم قدرًا، فمَالَ إِلَيْهِ، فنهاهُ عَمَّا همَّ به مِن الطَّرْدِ، لا أنَّه أَوْقَع الطَّرْدَ، ووصف أولئك بأحسن أوصافهم، وأمره أن يصبر نفسه معهم[2].

قال الإمام محمد ٱبْنُ عرفَة (ت٨٠٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: هَمَّ ﷺ بِذَلِكَ ولَمْ يَفْعَلْهُ، فعَصَمَهُ اللَّهُ من فِعْلِه[3].

---

(١) ابن ماجه (٤١٢٧)

(٢) المفهم (ج٦/ص٢٨٥)

(٣) تفسير الإمام ابن عرفة (ج٢/ص٦٥٤)

ففي هذه الآية الكريمةِ أَظْهَرَ اللهُ تعالى إحسانَهُ وحبَّهُ وبِرَّهُ على حبيبِه ﷺ حيث تداركَ أَمْرَهُ قَبْلَ الوُقوعِ فيما يُوجِبُ العِتابَ[1].

قَالَ أَبُو العَبَّاس ٱبنُ عطاء (ت٣٠٩هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: عَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بَعْدَ الزَّلَّاتِ[2]، وَعَاتَبَ نَبِيَّنَا ﷺ قَبْلَ وُقُوعِهِ لِيَكُونَ بِذَلِكَ أَشَدَّ ٱنْتِبَاهًا وَمُحَافَظَةً لِشَرَائِطِ المَحَبَّةِ[3].

قال القَاضِي عِيَاضٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَهَذِهِ غَايَةُ العِنَايَةِ[4].



(١) المدحة الكبرى (ص٤٢)

(٢) الخفَاجي: المراد بزلات الأنبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خلافُ الأولى الذي هو بالنسبة لعلوِّ مقامهمْ كالزلَّةِ من غيرهم. (النسيم، ج١/ص٢٢٤)

(٣) حقاق التفسير للسلمي (ج١/ص٣٩٣)

(٤) الشفا (ص٧٠)

فَصْلٌ

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾[الأنعام: ٥٦].

قال الإمامُ عبد الكريم القُشَيْرِي (ت٤٦٥هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يعني: صَرِّحْ بالاْعْتِرافِ بِجَمِيلِ ما خَصَصْنَاكَ بِهِ مِنْ وُجُوهِ العِصْمَةِ وَالنِّعْمَة، وأَخْبِرْهُمْ أنَّكَ في كنَفِ الإيواء مُتَقَلِّبٌ، وقَبْضَةِ الصَّوْنِ مُصَرَّفٌ، فلا لِلْهَوَى علَيْكَ سُلْطَانٌ، ولا لك مِنْ مَحَلِّ التَّحْقِيق تَباعدٌ، أو عَنِ الحُضُورِ غَيْبَةٌ[1].



(١) لطائف الإشارات (ج١/ص٤٧٨)

فَصْلٌ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾[الأنعام: ٩٠].

دَلَّتِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ على أنَّ نَبِيَّنا ﷺ أَفْضَلُ الرُّسُلِ الكِرَامِ لأنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَ بِٱسْتِجْماعِ أَخْلاقِهِم المُتَفَرِّقة.

ولا شَكَّ أنَّ خِصالَ الكَمالِ وصِفَاتِ الشَّرَفِ كانَتْ مُتَفَرِّقَةً فيهم، فداوُودُ وَسُلَيْمانُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كانا مِنْ أصحابِ الشُّكْرِ على النِّعمَة.

وأيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كانَ صاحِبَ الصَّبْرِ على البلاء.

ويُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كانَ مُسْتَجْمِعًا لهاتَيْن الحالَتَيْن.

ومُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كانَ صاحِبُ الشَّريعَةِ القَوِيَّة والمُعْجِزاتِ البَاهِرَة.

وزَكَرِيَّا ويَحْيَ وعِيسَى وإلْيَاسَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانُوا أصحابَ زُهْدٍ.

وإسماعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كانَ صاحِبَ الصِّدْقِ.

ويُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان صاحِبَ التَّضَرُّع.

فلمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى كُلُّ الأنبياء، وكان الغالِبُ على كُلِّ واحِدٍ منهم خصْلَةٌ مُعَيَّنَة مِنْ خِصال المَدْحِ والشَّرَفِ، أمَرَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ يَقْتَدِي بهم بأسْرِهِمْ، فكأَنَّهُ تعالَى أمَرَ مُحَمَّدًا ﷺ أن يَجْمَع مِنْ خِصَال العُبُودِيَّة والطَّاعةِ كُلَّ الصِّفات ٱلَّتِي كانَتْ مُتَفَرِّقَة فيهم بأجْمَعِهِمْ.

ولَمَّا أمَرَهُ تعالى بذلك ٱمتنع أن يقال: إنَّهُ قَصَّرَ في تحْصِيلِها، ثَبَتَ أنَّهُ ﷺ حَصَّلَها، ومَتَى كانَ الأمْرُ كذلِكَ وجَبَ أنْ يُقَال: إنَّهُ عليه الصلاة والسلام أَفْضَلُ مِنْهُمْ بِكُلِّيَّتِهِمْ.



فَصْلٌ

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ١٠٧﴾ [الأنعام: ١٠٧].

قال الإمام ٱبْنُ عرَفَة (ت٨٠٣هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحفِيظُ: الوَصِيُّ. وقُدِّمَ لأنَّ الوَصِيَّ أخَصُّ من الوَكِيل، ونَفْيُ الأخَصِّ لا يستلزِمُ نَفْيَ الأعَمِّ لأنه إذَا أطلق في الوَصِيَّة عمَّتْ في كلِّ شيء بلا خلاف، وإذا أطلق في الوكالة لم تعمَّ، إلا على رأيِ الأندلسيين، والوصيَّةُ من فِعْلِ غَيْرِ المُنَوَّب عنه؛ لأنها مِنْ فِعْلِ الأبِ، والوكالة مِنْ فِعْلِ المُنَوَّبِ عَنْهُ لأنها من فعل الشَّخْصِ بنفسِهِ، فليس هو تأكيدًا، وإنما هو تأسيس.

وفيها تَسْلِيَةٌ للنَّبِيِّ ﷺ، كما قال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: ٣] [1].



(١) تفسير الإمام ابن عرفة (ج٢/ص٦٩٣)

فَصْلٌ

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: ١١٢].

قال الشَّيْخُ الخَرُّوبِيُّ (ت٩٦٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: الآية تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ بالتَّأَسِّي بمَنْ قَبْلَهُ مِنَ النَّبِيِّين عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

والمَعْنَى: يا مُحَمَّدُ كما كان لكَ أعْدَاء، كذَلِكَ جَعَلْنَا لِمَنْ قَبْلَكَ مِنَ الأَنْبِيَاء، فَٱمْتُحِنْتَ كما ٱمتُحِنُوا، فَٱصْبِرْ كما صَبَرُوا، وما فَعَلْنَا بك وَبِهِمْ ذلك إلَّا لأمْرٍ أَرَدْتُهُ، مع ما في ذلك مِنْ تَثْبِيتِ الأُجُورِ ونُزُول مقامِ الصَّبْرِ، ولِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ويحيي مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ[1].



(١) تفسير القرآن (ج١/ق١٥٣/ب)

فَصْلٌ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤].

هذه الآيَةُ مُشْعِرَةٌ بأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعَثَ ولَيْسَ في المَشْرِق والمغرب مِثْلُه ﷺ، إذِ اصْطَفاهُ الله تعالى حَتَّى وَسِعَتْ نَفْسُهُ الشَّرِيفَةُ الفَضائِلَ الحمِيدَةَ والخصَائل الرَّفِيعَة، وأعدَّهُ لأن يكونَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين.



فَصۡلٌ

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

قال الشَّيْخُ الخَرُّوبِيُّ (ت٩٦٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: أَمَرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أن يعلِّقَ قَلْبَهُ بإِخْلاصِ عَمَلِهِ لِرَبِّهِ تعالى، وٱبْتَدأ بذِكْرِ الصَّلاةِ لأنَّها مُعْظَمُ العِبَادَاتِ وٱحْتَوَتْ على أنواعٍ منها أقْوَالٌ وأفْعَالٌ وأَحْوَالٌ، فإخلاصها يتضَمَّنُ إخْلاصَ أعمالٍ كثيرةٍ. وَ﴿نُسُكِي﴾ أي: عبادَتِي. وقِيلَ: صَلَاتِي وحَجِّي مِنْ مَنَاسِكِ الحَجِّ. وقيل: ذَبْحِي.

وقَوْلُهُ: ﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: أعمالي في حياتي وعند مماتي، والمرادُ أنَّ جميعَ تصَرُّفاته في مُدَّةِ حياتِه وعِنْدَ مَوْتِه إنما هي خالِصَة لِلَّهِ تعالى رَبِّ العَالَمِين(١).

وقد أشارت الآية الكريمة إلى كمالِ حَالِ الحَبِيبِ ﷺ لأنه جَعَلَ العِبَادَةَ وما كان عليه في الحياة والممات كُلَّها لِلَّهِ ربِّ العالَمِين، بحيث لا

---

(١) تفسير القرآن (ج١/ق١٥٩/ب)

يتدَاخَلُ فيها الأغْيَار، وهذا أعْلَى مَراتِبِ الأبرار، وأشِيرَ إلى أَنَّهُ عليه الصلاة والسلام أَوَّلُهُمْ وأَقْدَمُهُمْ وَأَشْرَفُهُمْ.



خَاتِمَةٌ

وفي هذه السُّورَةِ الكريمةِ آياتٌ تَدُلُّ على عُلُوِّ حالِ الحَبِيبِ ﷺ كإضافة اللّٰه سبحانه ذاته الكريم إليه عليه الصلاة والسلام بقوله: «رَبّكَ» وذِكْرِهِ ﷺ مَقْرُونًا بذِكْرِهِ الكَريم على هذا الوَجْهِ في مَواضِعَ عدِيدَةٍ، ولَفظ «الرَّبِّ» يقْتَضِي الإحْسَانَ والرَّحْمَة والحنانَ، ولا شَكَّ أنَّ هذا مِنْ آثارِ المقام ٱلَّذي هُوَ عَلَيْهِ ﷺ.

فمن ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام: ٣١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٣٢﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأنعام: ٣٧]، إِذْ فِيهِ مِنَ البُعْدِ وَالجَفَاءِ وَالخُرُوجِ عَنْ دَائِرَةِ العُبُودِيَّةِ حَيْثُ تَبَرَّؤُوا مِنْ هَذِهِ الإضافَةِ العَظِيمَة، وقَوْلُهُمْ هَذَا عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤].

تمت

دار الإمام ابن عرفة
تونس

